

البداية والنهاية

فقال له معاوية أين دارك قال بالبصرة وكم اتساعها قال فرسخان فى فرسخين قال لا تقل دارى بالبصرة ولكن قل البصرة فى دارى وذكر أن رجلا دخل بابن معه فجلسا على سماط معاوية فجعل ولده يأكل أكلًا ذريعا فجعل معاوية يلاحظه وجعل أبوه يريد أن ينهيه عن ذلك فلا يفتن فلما خرجا لامه أبوه وقطعه عن الدخول فقال له معاوية أين ابنك التلقامة قال اشتكى قال قد علمت أن أكله سيورثه داء قال ونظر معاوية إلى رجل وقف بين يديه يخاطبه وعليه عباءة فجعل يزدرية فقال يا أمير المؤمنين إنك لا تخاطب العباءة إنما يخاطبك من بها وقال معاوية أفضل الناس من إذا أعطى شكر وإذا ابتلى صبر وإذا غضب كظم وإذا قد غفر وإذا وعد أنجز وإذا أساء استغفر وكتب رجل من أهل المدينة إلى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه إذا الرجال ولدت أولادها واضطربت من كبر أعضادها وجعلت أسقامها تعتادها فهي زروع قد دنا حصادها فقال معاوية نعى إلى نفسى [.

وقال ابن أبى الدنيا حدثنى هارون بن سفيان عن عبد الله السهمى حدثنى ثمامة بن كلثوم أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإنى قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدى خير منى وإنما يليكم من هو شر منى كما كان من وليكم قبلى خيرا منى ويا يزيد إذا دنا أجلى فول غسلى رجلا لبيبا فان اللبيب من الله بمكان فلينعلم الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقراصة من شعره واطفاره فاستودع القراصة أنفى وفمى واذنى وعينى واجعل ذلك الثوب مما يلى جلدى دون لفافى ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين فاذا أدرجتمونى فى جريدتى ووضعتمونى فى حفرتى فخلوا معاوية وارحم الراحمين وقال بعضهم لما احتضر معاوية جعل يقول ... لعمري لقد عمرت فى الدهر برهة ... ودانت لى الدنيا بوقع البواتر ... واعطيت حمر المال والحكم والنهى ... ولى سلمت كل الملوك الجبابر ... فأضحى الذى قد كان مما يسرنى ... كحكم مضى فى المزمّنات الغواير ... فياليتنى لم أعن فى الملك ساعة ... ولم أسمع فى لذات عيش نواضر ... وكنت كذى طمرين عاش ببلغة ... فلم يك حتى زار ضيق المقابر

وقال محمد بن سعد أنبأنا على بن محمد عن محمد بن الحكم عن حدثه أن معاوية لما احتضر أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال كأنه أراد لأن يطيب له لأن عمر بن الخطاب قاسم عماله وذكروا أنه فى آخر عمره اشتد به البرد فكان إذا لبس أو تغطى بشيء ثقيل يغمه فاتخذ له